محاضرة رقم: 03

مفهوم الأخلاقيات التطبيقية

حركة الفكر البشري لا تشهد التوقف، هي في توالد مستمر، لأنها في علاقة دائمة وحياة الإنسان التي لا تشهد الثبات بدورها، فتراكمات الفكر الفلسفي من اليونان إلى العصر الوسيط مع المسيحيين والمسلمين خاصة ولد نهضة فلسفية حقيقية في أوروبا أين تم التقاط الخيط التنويري بداية من فرانسيس بيكون، رونيه ديكارت ثم مع فلاسفة التنوير (فولتير، روسو، مونتيسكيو..)، فكان لهذا المد التنويري أثار واضحة في الفكر الغربي المعاصر، حيث تم اكتشاف علوم الطبيعة.

علما أن أي تقدم علمي مرهون دائماً بالخيال العقلي للفلاسفة والعلماء على حد سواء، بينما التقدم الاجتماعي والحضاري عموماً مرهون بتأويل الحاضر وتطلعات المستقبل الذي يرسم صورته الفلاسفة، ويسعى الآخرون إلى تحقيقه بقدر ما يتفاعلون معه، بهذا يكون أي تطور يشهده العلم اليوم مرتبط لا محالة بالفلسفة والفلاسفة، لكن نحن بحاجة اليوم أيضاً إلى الفلسفة والفلاسفة الذين يقومون بتقويم وتقييم هذا التقدم العلمي، يشير محمد عابد الجابري في كتابه (قضايا في الفكر المعاصر)، إلى" يعيش العالم اليوم إذن على مشارف القرن الواحد والعشرين وضعية جديدة تماماً حتى لا نقول فريدة غريبة، تتمثل في هذا الإحراج بل التحدي المتزايد الذي يسببه العلم وتطبيقاته للأخلاق وللضمير الأخلاقي، والذي أثار ويثير ردود فعل يمكن وصفها بعودة

الأخلاق، ردود فعل تطالب بإخضاع العلم ومنتجاته للقيم والمعايير الأخلاقية، وذلك على العكس تماماً لما كان عليه الحال في مثل هذا الوقت من القرن الماضي حينما سادت في أوروبا نزاعات تنادي بتأسيس الأخلاق على العلم طارحة مشكلة فلسفية قديمة جديدة يُعبر عنها بمشكلة أساس الأخلاق"[1].

ومن نتائج التقدم العلمي المعاصر في ظل الثورات العلمية المتتالية الثلاث؛ ثورة الكم، وثورة الحاسوب، وثورة الجينوم البشري بما يترتب عليه من نتائج هائلة في مجال الهندسة الوراثية، والاستنساخ، وعلم البيولوجيا عموماً، وهذه الثورات العلمية تمخضت عنها أبحاث علمية تطبيقية أصابت البشرية بالهلع والخوف من المستقبل كما أشرنا في درسنا السابق، بقدرنا ما أسعدهم أيضاً. وذلك الخوف والهلع هو ما يلقي على فلاسفة اليوم دوراً أكبر فيما أصبح يعرف الآن بالفلسفة التطبيقية ***La Philosophie Appliquée***، هذا التوجه الفلسفي الجديد إنما هو واقع الأمر استجابة لمطالب الناس الملحة من الفلاسفة كما سبق الذكر، وتلك المطالب تتلخص في تساؤلات من قبيل؛ هل نقبل بتطبيق نتائج الهندسة الوراثية والاستنساخ على الإنسان مثلاً؟، هل هذه الرفاهية التي سببتها المخترعات التكنولوجية الحديثة، والتي حققت ذلك التقارب المذهل بين البشر، وجعلت العالم أشبه بقرية صغيرة في صالح الإنسان أم ضد مصلحته؟، هل أُهدرت حقوق الإنسان المعاصر، وخاصة حقه في العمل، وممارسة الحياة الطبيعية في

---

[1]- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ص37.

ظل سيطرة الآلة على سوق العمل؟، هل التطور العلمي الذي يسخر الآن لاختراع منتجات عسكرية يمكن أن تقضي على الأخضر واليابس في هذا العالم، هل هو بحث علمي في صالح الإنسان، أم هو بحث يفتقد إلى القيم الأخلاقية، لكونه صار يهدد كيان الإنسان نفسه؟، أين دور الأخلاق في البحث العلمي؟، وكيف يمكن تفعيل أخلاقيات البحث العلمي بحيث يمكن توجيه العلم لخدمة البشرية ككل؟.

ثمة تساؤلات كثيرة مثل هذه، تمثل عصب التنوير المعاصر، أين أصبح هم الفلاسفة اليوم لا بناء مذاهب فلسفية عقلية نظرية، بقدر ما يهتمون ببحث القضايا الملحة للبشر، والإجابة عن تلك التساؤلات التي يشكل مضمونها تهديداً حقيقياً على البشرية والبيئة الطبيعية.

لهذا نتساءل، ما هو الدور الحقيقي الذي يجب أن تلعبه هذه الأخلاقيات الجديدة؟، كيف تطورت بدورها وما هي إرهاصات ظهورها؟، ما هو موضوعها الأساسي؟، ما هي خصائصها وسماتها؟، مناهجها وأهدافها؟، هل من علاقة لها بمختلف الحقول المعرفية الأخرى؟

أولاً: تعريف الأخلاق التطبيقية

تعبر الأخلاق عادة عن جملة القيم وقواعد الفعل التي يأمر بها الأفراد والجماعات عبر أجهزة مختلفة كالأسرة والمؤسسات التربوية والدينية، وقد تكون هذه القيم والقواعد مصاغة في مذهب متناسق، وقد تتداول بشكل ملتبس من خلال تفاعل معقد لجملة من

العناصر[1]، في حين الأخلاق التطبيقية؛ هي مجموعة من القواعد الأخلاقية العملية المجالية، التي تسعى لتنظيم الممارسة داخل مختلف ميادين العلم والتكنولوجيا، وما يرتبط بها من أنشطة اجتماعية واقتصادية ومهنية، كما تحاول أن تحل المشاكل الأخلاقية التي تطرحها تلك الميادين، لا انطلاقاً من معايير أخلاقية جاهزة ومطلقة، بل اعتماداً على ما يتم التوصل إليه بواسطة المتداول والمتوافق، وعلى المعالجة الأخلاقية للحالات الخاصة، والمعقدة والمستعصية ***Casuistique***.

في تعريف أخر، أن الأخلاقيات النظرية ليست معايير عامة للسلوك، بل هي معايير لمهنة معينة أو لوظيفة محددة، أو لمؤسسة أو مجموعة داخل مجتمع،" والواقع أن لفظ (الأخلاقيات) من المنظور النظري عندما يستخدم بهذه الطريقة فإنه عادة ما يكون لفظاً مضافاً يضاف إليه مثلاً أخلاقيات الأعمال الحرة، أخلاقيات الطب، أخلاقيات الرياضة، أخلاقيات عسكرية...، وهكذا"[1].

تعني أيضاً، تلك المبادئ والقيم والأسس والضوابط العملية التي لا يستقيم الأداء المهني بدونها.

---

[1]- عبد العزيز العيادي، اتيقا الموت والسعادة، دار صامد للنشر والإشهار، الشرقية، تونس، ط1، 2005م، ص48.

[1]- ديفيد رزنيك، أخلاقيات العلم، تر: عبد النور عبد المنعم، مراجعة: يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت، العدد 316 يونيو 2005م، ص33.

يعرفها طه عبد الرحمن في كتابه:(سؤال الأخلاق) بالقول" لقد أُطلق اسم الأخلاقيات التطبيقية على بعض الدوائر الجديدة للاستشكال الأخلاقي التي انفتحت في الحياة الاجتماعية، وأشهر هذه الدوائر ثلاث: (الحياة)،و(المهنة)،و(البيئة)، فقيل (أخلاقيات الحياة)، وهي تبحث في المشاكل الأخلاقية التي يطرحها استخدام الوسائل التقنية المتطورة في مجال الطب الحيوي، وأيضاً (أخلاقيات المهنة)، وهي تنظر إلى القيم المهنية، والواجبات، والمسؤوليات التي تُناط بالمهنيين بموجب الوظائف المتخصصة التي يمارسونها، وأخيراً (أخلاقيات البيئة)، وتنظر في السلوكات التي ينبغي اتخاذها إزاء مختلف المناطق الحيوية من الطبيعة، إنسانية كانت أو حيوانية، أو نباتية، أو مائية، أو مناخية، أو فضائية"[2].

ثانياً: نشأة الأخلاق التطبيقية وتطورها

كتخصص ظهر في سبعينيات القرن الماضي، فهي تهتم بالمسائل الأخلاقية الناجمة عن التطور التقني الهائل، وقد برزت أكثر في عالم الأنجلو-سكسوني خصوصاً في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك بعد الحرب العالمية الثانية.

[2]- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المرجع السابق، ص22، 23.

كان مجال الاهتمام آنذاك هو (الحقوق والحقوق المدنية)، ويظهر ذلك في مقال لريتشارد واسر ستروم، على مفاهيم"(المساواة، العدالة، والحقوق الطبيعية)، ثم امتد مفهوم التفرقة العنصرية ليشمل الهجوم على التفرقة القائمة على النوع والجنوسة والعرق والأصل، فامتد النقاش إلى حقوق الذين لم يولدوا بعد، حقوق الموتى والضعفاء، أو المرضى، لتكون تلك بداية الأخلاق البيولوجية، وأخلاقيات علوم الحياة الحديثة".

يتضح لنا أن الأخلاق التطبيقية كانت وليدة فترة مهمة من تاريخ البشرية، هي لحظة أدرك فيها الإنسان أنه أفرغ أخلاقياً، نتيجة لتفجر قضايا جديدة ساهمت في انسلاخ الإنسان عن إنسانيته، وسعيه وراء رغبات جديدة أقل ما يقال عنها أنها أفقدت الإنسان كنهه، وجعلته أقرب ما يكون إلى الحيوان منه إلى الإنسان.

لقد ذهبت المذاهب الفلسفية الكبرى التي كانت تشكل ركيزة أساسية في حياة الإنسان كالانطولوجيا، والميتافيزيقا، الدين، وهي ركيزة الأخلاق، لم يُعد لها حضوراً قوياً في العالم المعاصر، أين أضحت العدمية هي السيدة بلغة الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، حيث تقول جاكلين روس في كتابها الموسوم ب:(الفكر الأخلاقي المعاصر)، أن "المرجعيات أو معايير الالتزام تتبدد، وأن القيم العليا تخسر قيمتها"، وذلك لصالح النزعة الفردية الجديدة.

إن ثقافة هذا العصر هي ثقافة الاستمتاع والإغراء، التسويق للحرية بزيف الحرية نفسه، يحدثنا الفيلسوف الفرنسي جان بودريار *Jean Baudrillard*[1] عن ما آلت إليه مجتمعات اليوم، يقول" والحال يمكن القول أن عصر الاستهلاك بوصفه المآل التاريخي لكل مسار الإنتاجية المتصاعدة تحت برج الرأسمال، هو أيضاً عصر الارتهان الجذري. فقد شاع منطق السلطة وعمَّ، إذ أنه يسيّر اليوم سيرورات العمل والمنتجات المادية، مثلما يسيّر الثقافة بأسرها والحياة الجنسية والعلاقات الإنسانية، وصولاً إلى الاستيهامات والنزوات الفردية. وهذا المنطق استرجع كل شيء، لا بمعنى أن كل الوظائف وكل الحاجات قد توضعت واستعملت لأغراض الربح وحسب، بل أيضاً بالمعنى الأعمق، حيث تمسرح كل شيء، أي تبرمج وتدوزن في خيلات، في علامات، في نماذج قابلة للاستهلاك"[2]، ليس ببعيد عن تصور بودريار لواقعنا، يلي مقال تحثنا فيه صاحبته عن تهاوي القيم، وتفكك الروابط الإنسانية قائلة" تحت ضغوط أخلاقيات السوق والمنافسة ونمط الحياة الاستهلاكي المفرط تتجه مجتمعات ما بعد الحداثة ... إلى القسوة والأنانية

---

[1]- جان بودريار *Jean Baudrillard*(1929- 2007م): فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، هو من الفلاسفة وعلماء الاجتماع الذين أثاروا الجدل حول عدة قضايا سياسية واجتماعية وفلسفية مثل قوله: حرب الخليج لم تقع، موت الواقع، التبادل الرمزي، عنف العالمي، التبادل المستحيل هذا المفهوم الأخير هو عنوان أحد كتبه في الأساس. لقد خلف وراءه عدة مؤلفات فكرية أسهمت في فتح أفق النقاش حول عدة قضايا فكرية وفلسفية، مثل: (نظام الأشياء)، (مجتمع الاستهلاك)، (التبادل الرمزي والموت)، (العنف في العالم)، (المصطنع والاصطناع)، (التبادل المستحيل).

[2]- جان بودريار، المجتمع الاستهلاكي، دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي وتراكيبه، تعريب: خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1995م، ص257، 258.

والفردية المنغلقة على ذات الإنسان، فتتخطى موضوعة الإعلاء من قيمة الإنسان التي تبنتها أفكار التنوير والحداثة، وتتجه إلى التعامل مع البشر والمصنعات باعتبارها أشياء قابلة للاستبدال. فما تم استهلاكه لم يعد مناسباً لأخلاق المظاهر والسوق، ومغرياتها المتجددة، ومعاييرها المادية، وعروضها المهنية، فتتهاوى القيم، وتختل الروابط الإنسانية، وتحل النفعية المجردة محلها، وعندها تبرز حقيقة صادمة نجد البشرية قد بلغت الحدود القصوى في الاستهلاك"[1].

ومنه اليوم نجد أن البشرية تعيش عصر لا أخلاقي يتطلب وجود الأخلاق بالصورة التي يقتضيها، وسر ذلك يعود على تهاطل المصائب التقنية من كل حدب وصوب، وهذا ما ينبغي مجابهته ومواجهته، عن طريق أخلاقيات جديدة تساير النمو المتسارع للتقنية، شريطة أن تكون أخلاق الفعل، والممارسة لا مجرد أخلاق نظرية مجردة، لأن هذه الأخيرة أضحت عاجزة على مواجهة الوضع الراهن، بعجزها على استيعاب وإيجاد الحلول اللازمة للمسائل التي تطرحها التقنية اليوم. ومنه فإن الأخلاق التطبيقية حاجة ملحة وضرورية داخل ميادين العلم المتعددة، تقول جاكلين روس" فكل ممارسة تستلزم اللجوء إلى معايير ومبادئ تستهدف إنارة العمل"، وهذا لايعني بالضرورة أنه ثمة شرخ بين الأخلاق النظرية والتطبيقية طبعاً، فالأخلاق التطبيقية في حقيقة الأمر ما هي إلا أخلاق نظرية مترجمة على أرض الواقع.

---

[1]- لطيفة الدسيمي، السعادة الزائفة: النزعة الاستهلاكية والوعود الفارغة، مجلة الجديد، دورية ثقافية عربية جامعة تصدر في لندن، العدد 53، يونيو/ حزيران 2019م، ص11.

روس تطرح تساؤل حول طبيعة" منظري الأخلاق التطبيقية هل هم حكماء أم منظري علم الواجبات؟"، ولكي لا تسقط الأخلاق التطبيقية في فخ النزعة الوضعية أو العلماوية، اللتان تحتكمان إلى قواعد الربح والنجاعة، وإلى الإيمان المطلق بقدرة العلم على إيجاد الحلول للمشاكل المختلفة في حياة الإنسان اليومية، في نظر جاكلين روس لابد من وضع لجان مشتركة، يشترك فيها الجميع لنسج هذه الأخلاقيات (رجل العلم، ورجل الدين، الفيلسوف، ورجل القانون، .. وغيرهم)، فالعمل المشترك هو الوحيد القادر على أن يزودنا بمصادر مقاومة وصمود تمكننا من مواجهة الواقع المحبط.

ثالثاً: موضوع الأخلاق التطبيقية

هو حقل متعدد التخصصات يدرس القضايا الأخلاقية في مجالات السياسة، والطب، والبحوث التكنولوجية، وأشكال مختلفة من الأخلاقيات (العمل، الإعلام، النسوية والعناية بالطفولة، مجال حقوق الإنسان، الحوار والتسامح ونبذ العنف..)، "الأخلاق التطبيقية هي دراسة للمعضلات الأخلاقية، والأخلاقيات والمعايير في وظائف ومهن، ومواقف عينية محددة، وكيفية تطبيق النظريات والمفاهيم القيمة في سياقات معينة"[1].

إن الجديد في الدراسات الفلسفية التطبيقية المعاصرة، أنها تتجاوز النظرة المطلقة لمستقبل البشرية بعيداً عن التفاؤل والتشاؤم، وتبحث في ممكنات المستقبل في ميادين

[1]- ديفيد رزنيك، أخلاقيات العلم، المرجع السابق، ص36.

مثل السياسة والاقتصاد، والبيئة، وعلوم الفيزياء، وموقع الفن في الحياة المعاصرة، ونظرية المعرفة والعلوم السلوكية، وعلوم الأعصاب، إن هذه الدراسات تبحث في صورة الحاضر، والاحتمالات التي يتطور باتجاهها، إنها تسعى بوجه عام إلى الاهتمام بدراسة مستقبل الإنسان، ونوعية حياته وكيفية تحسين الطريقة التي ليس بها[2].

[2]- مصطفى النشار، العلاج بالفلسفة، بحوث ومقالات في الفلسفة التطبيقية، وفلسفة الفعل، الدار المصرية السعودية، القاهرة، ط1، 2010م، ص159.